تختصر التوراة، ومن يوالي تاريخها وجغرافيتها، التوسّع الآشوري والبابلي في الشرق القديم بالسبي البابلي، وهو قول يشبه القول ان القنابل الالمانية، التي سقطت على لندن، لم تقتل الاّ السيد فاجن وعائلته (فاجن، هو أحد أبطال رواية شارل ديكنز «اوليفر تويست»)!

ان التاريخ، منظوراً اليه من هذه الزاوية، لا يتحوّل الى تاريخ مصائر بشرية، بل تاريخ مصير اليهودي. ولا يعدو مثل هذا التاريخ اسماً كاريكاتيرياً عجيباً. ولكن أليس هذا هو، فعلاً، التاريخ كما تكتبه اوروبا وحركة الاستعمار، حين أصبح التاريخ مصيراً اوروبياً، ثمّ مصيراً يهودياً، على التوالي؟

ربما يُدْهَش القارىء العربي لو علم بأن التعلّم الصهيوني عن الحروب الصليبية يؤوّل هذه الحروب على انها قامت من أجل قتل اليهود، وان حضارة العرب في الاندلس لم تكن ممكنة لولا اليهود الذين أقاموها[٢٥]! ألا تنسجم هذه الرؤيا للتاريخ، حرفياً، مع مقتضيات التوراة بالقول بـ «الشعب المختار»، لغة وعقيدة ووجوداً؟

يماثل هذا النوع من المزاح التاريخي تلك النمذجة الغربية لتجربة الانسان واختصارها في تجربة اليهودي، الى درجة ان عدداً من الكتّاب الغربيين لا يستطيع جلاء صورة عصره بدون الاستناد الى هذا المرتكز من التجربة.

المسرحي الاميركي ارثر ميللر، في مسرحية «بعد الهبوط من الفردوس»، وصل بأبطاله الى ذروة وعيهم بالاضطهاد، في الفترة المكارثية الاميركية، بزيارة معتقل نازي، حيث يتبدّل وعي العالم في ذهن أبطاله ويرون «الدانوب رمادياً، بعد ان كانوا يظنونه أزرق...»[٢٦].

واستقى جورج أورويل، صاحب رواية «العام ١٩٨٤» مشاهد الرعب والاضطهاد التي تسم عصر قيام الدكتاتوريات من الروايات الصهيونية عن غرق السفن التي أقلّت اليهود الى فلسطين[٢٧]. وحين وصف شخصية القائد المغضوب عليه والملعون من قبل الديكتاتورية المتخيّلة في العام ١٩٨٤، لا يجد ما يشبهه به سوى بأنه «وجه رجل يهودي ضعيف البنية يكسو رأسه شعر أشيب وله ذقن صغير... كان وجهاً ينمّ عن الذكاء، ولكنه يوحي للانسان باحتقار صاحبه»[٢٨]. أمّا جيمس جويس، فهو وحّد في روايته «يوليسيس»، بين هذه الشخصية، الملحمية الاغريقية والسيد بلوم اليهودي الايرلندي التائه، في مدينة دبلن، سحابة نهار كامل، أي في العالم والتاريخ، كما أشارت الى ذلك خلفية الرحلة[٢٩].

الكاتب الغربي، بشكل عام، لا ينسى هذا المرتكز (تجربة اليهودي) التي أصبحت رمزاً لوضعية الانسان في العالم، سواء أكتب أم تحدث، وسواء خاطب الغربي أم غيره. فهذا المرتكز، بالنسبة اليه والى جمهوره، دليل «أصالة» و«معاصره» و«شمول انساني»، كما يوحي السياق. وكم كان مدهشاً، بالنسبة اليّ على الاقل، ان أقرأ في مجلة «ثقافة الهند» خطاباً ألقاه، في جمهور هندي، الكاتب الالماني غونتر غراس. ففي هذا الخطاب، أراد الكاتب، ربما لاحساسه بمسؤوليته عن قضايا العصر الكبرى، تأكيد نظرته الانسانية الواسعة، فركّز حديثه على خطرين يهدّدان البشرية، هما الجوع مع الانفجار السكاني ومقتل ستة ملايين يهودي في المانيا، وهو رقم أسطوري، كما أثبتت دراسات معاصرة. وكان هذا مدخلاً الى الزعم بأن هذا الرقم يمكن ان يزداد، اذا ظلّ التهديد العربي بالابادة موجّهاً الى اسرائيل. وفي اعتقاده، ان العالم كلّه يساهم في تهديد هذه «الجماعة الصغيرة الحزينة»[٣٠]. فالدولتان الكبريان، اميركا والاتحاد السوفياتي، تساهمان من طريق مدّ العرب بالاسلحة[٣١]؛ ودول العالم الثالث تساهم، وكذلك الدول الاوروبية، حين تسمح للدول العربية بتهديدها نفطياً[٣٢].